الرأى العام

للدكتور محمد مندور

لا يستطيع الناظر فى حياتنا العامة أن يطمئن إلى وجود رأى عام بالمعنى المفهوم فى بلاد الغرب ، وتلك ظاهرة ترجع فيما يبدو إلى عاملين كبيرين : أولهما اقتصادى ، وثانيهما ثقافى.

ولسنا فى حاجة إلى التدليل من جديد على فساد توزيع الثروة فى مصر ، وتلك آفة قديمة ستلقى هذه الأمة فى علاجها مشقات كبيرة ، ولكنها ستعالج يوما ما . وإنما نكتفى بإيضاح نتائجها فيما نحن بصدده من وجود رأى عام أو عدم وجوده . وأمتنا تنقسم فى جملتها إلى طبقتين : أغنياء وفقراء ، وأما الطبقة الوسطى فلا تزال فى بدء تكوينها . وكبار الأغنياء بطبيعتهم قوم مترفون أنانيون يسخرون من الاهتمام بالمسائل العامة التى لا تعنيهم إلا فيما يمس مصالحهم المباشرة . وأفراد الشعب تشغلهم مهام العيش ومشقاته حتى لا تترك لهم فراغا للتفكير الجدى فى الأمور العامة ؛ والفقر ينال من قوة تقومهم فلا يستطيعون أن يتحرروا من إرادة الأغنياء . وعندما يكون المرء فى قبضة غيره ، والحاجة إلى الكفاف من العيش تلاحقه ، كيف تريد أن يكون حر الرأى . والملاحظ فى الأمم الغربية أن الطبقات الوسطى هى التى تكون الرأى العام وتقوده ، وذلك لأنها الطبقة الطموح ، ثم لأنها قريبة من الطبقة الدنيا التى تكون جمهرة الأمة ، وهى بحكم هذا القرب تعرف آلام الشعب وآماله كما تفهم عقليته . وهى طبقة جادة لا تعرف الاستهتار ، تتمتع بقسط من الاستقلال المادى يعطيها القدرة على الصلابة فى الرأى ومواصلة الكفاح من أجله . ثم إنها طبقة مستنيرة تستطيع بما لها من ثقافة ألا تقف عند الرضا أو السخط ، بل تستنبط الوسائل الكفيلة بتحقيق الخير لعامة الناس . وليس من شك فى أن نهاية هذه الحرب ستشهد صراعا قويا بين تيارين من التفكير : التيار الاقتصادى ، والتيار الاجتماعى . ونحن على تمام الثقة من أن سفسطة الاقتصاديين لن تقف عند حد ، فسيحاولون إيهام الشعب أن علاج الفقر الصحيح هو زيادة الانتاج بتنمية الصناعة وحمايتها من المنافسة الأجنبية . والاجتماعيون لا ريب يسرهم أن يزيد الدخل العام للأمة ، وهم ليسوا من خصوم الصناعة ، ولكنهم سيحرصون على أن تكون وسائل الانتاج ملكا للأمة جميعا ولو بطريق التساهم ، لا لفرد من الأفراد . وذلك لأنهم لن يستطيعوا صبراً على التفاوت القائم اليوم ، ولابد أنهم سيمنعونه من أن يستفحل بظهور أثرياء الصناعة إلى جوار أثرياء العقار . وإذا كتب للاجتماعيين الغلبة فلن يتركوا مشكلة توزيع الثروة تغيب عن الأذهان تحت ضباب مريب من الحرص على تنمية الثروة القومية وتعزيز استقلال اقتصادى موهوم ، لو حدث ذلك لتحررت عندئذ أزواح ملايين من البشر ، وارتفع مستواهم النفسى ، فكان لهم صوت فى تكوين الرأى العام .

والعامل الثقافى يطالعك فى دور العلم وفى فنون الصحافة . والذى لا شك فيه أنه لا مدارسنا العامة ولا صحافتنا بقادرة فى وضعها الحاضر على أن تكون رأيا عاما . والمدرسة العامة روحها الدرس ، وباستطاعتك أن تقلب البصر فيمن تلقى من مدرسين ، فما أظنك واجدا الكثيرين بينهم ممن لهم فلسفة خاصة فى الحياة . ولسنا نقصد بالفلسفة الخاصة آراء بعينها فى الاقتصاد أو الاجتماع أو الأدب ، بل نرمى إلى حالة من النضوج الفكرى والعاطفى تمكن صاحبها من أن يتخذ له موقفا محدداً من الناس والأشياء ، فيعتقد مثلا أن المادة هى عصب الحياة ، أو أن الروح هى محركها الخفى ، ويكون من المؤمنين باطراد التقدم فى الانسانية أو القائلين بتراوحها بين المد والجزر . وقد يعالج مشاكل الحياة بالجد الحار أو بالسخرية الباسمة ، وقد يتناولها بالثقة المتفائلة أو الحذر المتشائم ، ونحو ذلك من أنواع الفلسفات الشخصية التى لا بد أن تتصف بإحداها كل نفس ناضجة . وهذه الفلسفة الشخصية هى التى تمكن المدرس من التأثير فى تلاميذه تأثيراً باقياً ، وذلك لأنه يستطيع عندئذ أن يعطيهم ضوءا هاديا فى الحياة ، وبفضل هذا الضوء يستطيعون بدورهم أن يحكموا على مختلف الأمور . ومن البين أن الرأى العام يتكون من تفاعل مجموعة الأحكام الفردية . وإذن فما دام معلمنا لا فلسفة له ، ومادام كبار مفكرينا وأساتذتنا

لا يعرفون كيف يزودون هذا العلم بتلك الفلسفة ، فما أظننا مستطيعين أن نجعل من مدارسنا بؤرات لتكوين الرأى العام . وأهول ما أخشاه ألا نجد من بين أساتذتنا وكبار مفكرينا أنفسهم نفراً كافياً يصدرون عما تتحدث عنه من فلسفة شخصية ، وما على القارىء إلا أن يستعرض الأسماء المعروفة ليحاول أن يحدد فلسفة كل منهم . ولقد يجد لأغلبهم مجموعة من الكتب أو طائفة من الأبحاث ، ولقد يكون فى تلك الكتب وتلك الأبحاث جمال ومتعة ، ولكنه سيجد مشقة فى أن يستخلص منها روحا عامة وفلسفة جامعة . وعند ما يخرج التلاميذ من المدارس ، وليس لكل منهم اتجاه روحى معلوم ، لن نجد غرابة فى أن يعجزوا عن حمل الصحافة على تقديم غذاء صالح للشعب .

والصحافة كما هو معلوم صحافة إخبارية أو صحافة رأى . والأولى وإن لم تخل من أثر على الرأى العام بحكم تخيرها لنوع الأخبار التى تنشرها وتلوينها لتلك الأخبار ، إلا أنه فى نهاية الأمر أثر محدود . وعلى العكس من ذلك صحافة الرأى التى تتكون فى بلادنا من بعض الصحف اليومية ثم معظم المجلات الأسبوعية . وما دامت الصحف ملكا لأفراد أو شركات وكان هدفها الأول هو الربح المادى ، فما أظن أننا نستطيع أن نرجو من ورائها خيراً كثيراً فى تكوين رأى عام سليم ، وذلك لأن حرصها على الانتشار يدفعها إلى اللعب على غرائز القراء ، فلا تجد فيها إلا فتنا سياسية تدور حول كبار الشخصيات ، ولا ترضى فى القارىء غير حب استطلاع خبيث ، أو تهريجا دعاجوجيا يولول لآلام الشعب ويلوح له بآمال خادعة دون أن يدرس مشاكله دراسة جدية ، ويقترح لعلاجها الوسائل الجدية . وأخيراً ترى إثارة الغرائز الجنسية اعتماداً على ما تنزله حياتنا الاجتماعية بنفوس الشبان من كبت . وإنه وإن يكن من الثابت أن أكثر الصحف انتشاراً فى مصر ، ليس أكثرها تأثيراً فى الرأى العام بحكم أنه كلما ازداد جمهور الصحيفة كان جمهور تسلية وتزجية فراغ ، إلا أنه مما لا شك فيه أن أمثال هذه الصحف تقوم بعملية هدم كبيرة ، فهى تقوض الجدية فى النفوس ، كما تحل الأخلاق وتعود العقول الكسل . وأنت إذا وجدت إلى جوار أمثال تلك الصحف ، صحفا أخرى قليلة الانتشار ولكنها جدية مؤثرة باعتبار أن قراءها ممن يلتمسون غذاء لأرواحهم ، إلا أنك - لسوء الحظ - قلما تجد لاحداها قيادة عامة واتجاها روحيا واضحا ، وإنما هى طائفة من الأقلام والمعلومات لا يجمع بينها غير غلاف الصحيفة ؛ ولهذا قلما تكون صحيفة منها مدرسة خاصة فى الحياة . وإذا كنا لم نصل بعد حتى فى مجال السياسة إلى خلق صحافة تعبر عن مذاهب الحكم المختلفة وتناضل دونها ، مع أن السياسة أمر يهم الملايين من البشر ، فإنه لا ريب يكون من تعجل الأمور تعجلا مسرفا أن نتطلع إلى صحافة ثقافية موحدة الاتجاه ، مع أن الثقافة بطبيعتها ميدان الخواص ، ولكننى مع ذلك لا أفهم لماذا لا تكون لدينا مجلات تتحمس لتيارات التفكير المختلفة ، وتحاول أن تجمع حولها النفوس . ولكم من مرة يسألك أحد الغربيين عن الاتجاه الذى تتميز به هذه المجلة عن تلك ؟ فلا تستطيع جوابا . ونحن لا نقصد بذلك إلى المجلات الخاصة ، بل نصب القول على المجلات العامة ، فهذه هى التى نزعم أن من الممكن بل من الواجب أن تكون لها روح عامة برغم تنوع موضوعاتها وعندما تتعدد أمثال تلك المجلات وتتفاعل تياراتها المختلفة سيبدأ الرأى العام فى أن يتكون .

الرأى العام وليد لفلسفات فردية تشع فى المجتمع . والمجتمع بدوره لا يستطيع أن يتمثلها إلا إذا تركت له الحياة الاقتصادية من الراحة والفراغ ما يمكنه من تأملها . وتلك الفلسفات لن تنمو إلا عن طريق المعلم أو الصحافة ، وإصلاح الأخيرين لا يمكن أن يتم بقرار من قرارات الدولة ، بل ولا قانون من قوانينها ، وإنما لا بد لتحقيقه من سنين طويلة تتضافر فيها جهود الأفراد والحكومات . ولا بد لنا من أن ننتظر ، مع استمرارنا فيما نحن بسبيله اليوم من فتح المدارس والجامعات ومناقشة مناهج الدراسة والتعليم ، وحسن القيام على دور التمثيل والسينما ومحطات الإذاعة وما شابهها من وسائل نشر الثقافة بين الشعب . وإن يكن هناك ما نستطيعه لساعتنا فهو تعويد الجمهور أن يتجرع ما ينفعه والصمود له عندما تدفعه غرائزه الدنيا إلى التماس اللذات الرخيصة .

الرأى العام لم ينضج بعد فى بلادنا ، ولكن لا محل لليأس فنحن سائرون إلى الأمام ، وما علينا إلا أن نواصل السير فى ثقة وشجاعة .

محمد منصور

٦ - ٢٤